الماركسية والرأسمالية في المنهج المقارن

للسيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس)

السيد

محمود الثعالبي الحسني

٢٠١٦م ١٤٣٧هـ

المـقـدمــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد الأمين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين، أما بعد:

فمع بداية القرن العشرين غزا العالم الإسلامي سيل جارف من الثقافات والتيارات الفكرية الغربية القائمة على أسسها الحضارية ومفاهيمها عن الكون والحياة والمجتمع، وكان على رأس هذه الثقافات والتيارات الفكرية(الرأسمالية) و(الماركسية) اللذان يمتلك كل منهما نظاماً سياسياً عظيماً ويتحكم بمساحة واسعة من العالم، حتى اقتسما العالم على قسمين وحولاه إلى معسكرين(المعسكر الرأسمالي الغربي) و(المعسكر الاشتراكي الشرقي)، وقام بينها صراع فكري وسياسي على حساب الأمة الإسلامية وكيانها الفكري والسياسي وكانت هذه الهجمة الفكرية التي تعرض لها العالم الإسلامي من المعسكرين المذكورين من الضخامة والشراسة، كادت أن تسجل انتصاراً ساحقاً لصالحها وتسلب الهوية الفكرية والثقافية لمجتمعنا الإسلامي.

إلا أن هذا لم يتحقق وأبى الإسلام إلا أن يقول كلمته قوية ومدوية في معترك هذا الصراع المرير، فانبرى أبناؤه الغيارى وفرسانه الشجعان من مفكري الإسلام سنة وشيعة بالذود عن حياضه بنقد هذين النظامين وتفنيدها، ومن أبرز هؤلاء المفكرين (محمود الطالقاني) في كتابه (الإسلام والملكية) المنشور ١٩٤٤، و(سيد قطب) في كتابه(الإسلام والرأسمالية) المنشور ١٩٥١، و(محمد حسين الطباطبائي) في كتابه (أسس الفلسفة والمذهب الواقعي)المنشور ١٩٥٣، و(محمد الغزالي) في كتابه(الإسلام والمناهج الاشتراكية) المنشور ١٩٥٤، و(سعيد لبيب) في كتابه(الشيوعية والإسلام) المنشور ١٩٦١، و(عبد الحميد صديقي) في كتابه(تفسير التاريخ) المنشور ١٩٦٩، و(محمد باقر الصدر) في مجموعة مؤلفات انحصرت بين عامي (١٩٥٨ –١٩٧٩) ، إلا أن نقد هؤلاء المفكرين لم ترقَ إلى نقد السيد الشهيد محمد باقر الصدر، إذ اقتصر أحدهم إما على انتقاد تيار واحد فقط (كالرأسمالية) مقابل(الإسلام) كما فعل (سيد قطب) في كتابه المذكور أعلاه، أو (الماركسية) فقط مقابل الإسلام كما فعل(سعيد لبيب) في كتابه المذكور، أو ينتقد جانباً معيناً من التيار تاركاً الجوانب الأخرى فقط، كأن ينتقد(الفلسفة الماركسية) فقط مقابل الإسلام كما فعل (الطباطبائي) في كتابه المذكور، أو(الاقتصاد الماركسي) فقط مقابل الإسلام كما فعل(محمد الغزالي) في كتابه المذكور، أو يقتصر على مفصل أو جزءٍ فقط كأن ينتقد(حركة التاريخ) من الفلسفة الماركسية مقابل الإسلام كما فعل(صدّيقي) في كتابه، أو ينتقد(الملكية) فقط من الاقتصادين (الرأسمالي،

والماركسي)مقابل الإسلام كما فعل(الطالقاني)، كما أن هذه النقود لم تكن بذلك العمق والسعة، بينما امتاز نقد الشهيد الصدر بالعمق والسعة والشمول، بحيث لم يضمها كتاب واحد وإنما امتدت إلى سلسلة كتب مكونة من عدة حلقات اختصت كل حلقة بجانب معين من النقد ولكلا التيارين لتشكل بذلك نقداً مقارناً لهما مقابل الإسلام.

وليس هذا فقط بل انتقل الشهيد الصدر بالفكر الإسلامي من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم في هذا الصراع، ومن إحكامٍ موزعة بين الأبنية الضخمة للعلوم الإسلامية إلى مرحلة النظرية المبلورة القادرة على الإجابة عن إشكالات العصر، ولا يمكننا أن نغفل أو نتجاهل ما قدمه هؤلاء المفكرون الإسلاميون، إلا أننا نرى أن ما قدمه الشهيد الصدر من نقده المقارن (للرأسمالية) و(الماركسية) له خصوصية منهجية وفكرية امتاز بها عن ما قدمه غيره من المفكرين الإسلاميين، وقد أشار إلى هذه الخصوصية عدد من الباحثين، إذ إن الشهيد الصدر لا يشيد بناءه الفكري إلا بعد نقد وتمحيص للأفكار والنظريات حرصاً منه على تقديم(الإسلام) الحل الناجع والوحيد، وعلى الرغم مما يمتاز به فكره(قدس) فإنه ما زال يعاني التهميش، فمعَ وجود دراسات عدّةً حول فكر الشهيد الصدر، مثل(الدولة في فكر السيد محمد باقر الصدر)"لعبد الجبار الرفاعي" و (التجديد في فكر السيد محمد باقر الصدر) "لعلاء عبد الحسين" و(الحكومة الإسلامية في فكر السيد محمد باقر الصدر) للسيد "محمود الثعالبي" و(التنمية الاقتصادية في فكر السيد محمد باقر الصدر" لعباس فاضل العامري " وغيرهم، لكن دراسة متخصصة في منهجه النقدي يرقى إلى مستوى فكره العالمي(قدس) بحسب علمي لا تزال غير متوفرة، اللهم سوى ما قدمه الدكتور(نزيه الحسن) في كتابه (السيد محمد باقر الصدر دراسة في المنهج) والذي حاول فيه اكتشاف المعالم العامة لمنهج الشهيد الصدر، فلا غرابة أن اعترى محاولتنا هذه النقص وشابها الخلل.

ممم

الخاتمـــــة

بعد هذه الجولة الشاقة وبعد أن منَّ الله علينا بإتمام هذه الأطروحة المتواضعة، وعلى ضوء ما قدمنا في ثنايا البحث على الرغم من قصر النظر وقلة المعرفة، نستعرض أهم ما توصل إليه الباحث من النتائج والتصورات المستخلصة منها وهي ما يأتي:

أولا: امتاز المنهج المقارن في النقد عند الشهيد الصدر بالرصانة، إذ شرع في مشروعه النقدي بنسف الأسس الفلسفية(للماركسية) مبتدأ بنظرية المعرفة– الحجر الأساس في الفلسفة – ومنتهياً بمفهومها الفلسفي للعالم ومقارنته بالمفهوم الفلسفي الإسلامي للعالم ونظريته في المعرفة، وأكمل هذا النقد بهدم البناء الاقتصادي والمتمثل (بتوزيع

الثروة) في كلا المذهبين(الماركسي) و(الرأسمالي) مبرهناً على عدالة المذهب الاقتصادي الإسلامي في توزيع الثروة، وأخيراً ختم مشروعه النقدي بالإجهاز على الأنظمة الاجتماعية لكلتيهما مثبتاً بطلان كل من (النظام الاشتراكي) و(الشيوعي المفترض) و(النظام الديمقراطي الرأسمالي)، مبرهناً على أن النظام الاجتماعي الإسلامي هو الأصلح لإسعاد البشرية.

ثانياً: تميز منهجه النقدي بالأصالة والشمول، إذ تفرد(قدس) عن الفلاسفة المسلمين في نقده للفلسفة الماركسية مضموماً ومنهجاً، وهذا ما لم يسبقه إليه أحد لا من متقدميهم في نقدهم للفلسفة اليونانية، ولا من محدثيهم في نقدهم للفلسفة الماركسية.

ثالثاً: تميز منهج الشهيد الصدر بالأمانة العلمية، وبالدقة في نقل المعلومة.

رابعاً: اتسم منهجه بالأصالة في اكتشاف المذهب الاقتصادي الإسلامي ولاسيما (توزيع ما قبل الإنتاج) وهذا من إبداعات الشهيد الصدر.

خامساً : يرى الباحث أن بعض العنوانات التي وضعها الشهيد الصدر للموضوعات في ثنايا بحثه(قدس) توحي بأنها غير ملائمة، كإطلاق مصطلح (الجانب السلبي) على أحد جانبي النظرية الإسلامية القائم على توزيع الثروة على أساس العمل، أو عنوان (بصورة منفصلة عن النظرية في التاريخ) الإسلامي للثروة، الذي فسر به ضريبة (الطسق)، أو غير مناسبة للمضمون كعنوان(ما قبل الإنتاج) على توزيع مصادر الثروة الأولية، واقترح الباحث تسميات أخرى لها.

سادساً: كان الشهيد الصدر في منهجه النقدي المقارن أنموذجاً للمفكر الإسلامي الحقيقي، اذ باستناده إلى آراء كبار فقهاء المسلمين(سنة وشيعة) وعلى اختلاف مذاهبهم، جعل من منهجه في التنظير للاقتصاد الإسلامي قوياً ومرصوصاً وعصياً على الاختراق، ونقده للخصم لا يمكن رده والتصدي له لأنه صولة بيد الإسلام الواحد.

سابعاً: اتسم منهجه المقارن بالرصانة وقوة الحجة بتطبيقه أسس النقد ومراحله على الحل المقترح للمشكلة، من خلال معالجته (قدس) للثغرات التي وقع فيها الخصم ولم يتمكن من حلها.

ثامناً: اعتمد الشهيد الصدر في استنباطه للبناء العلوي وتنظيره للاقتصاد الإسلامي، على القرآن الكريم والسنة النبوية وما ورد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وآراء كبار فقهاء المسلمين.

تاسعاً: اتسم منهجه بالإبداع، إذ قسم الحرية تقسيم آخر إلى الحرية الشخصية والتي تتعلق بسلوك الفرد، والحرية الجماعية والتي تشمل ما يتعلق بالفرد ضمن الجماعة.

عاشراً: تميز منهجه المقارن بالإيجابية في نقد الخصم، بمعالجته للخطأ الذي وقعت فيه الأنظمة الغربية والذي عمق المشكلة الاجتماعية أكثر فأكثر، مبرهناً على فشل هذه الأنظمة الوضعية في إسعاد البشرية، مثبتاً(قدس) أن (النظام الاجتماعي الإسلامي) هو الخيار الوحيد الصالح لإسعادها.

احد عشر:امتاز منهجه المقارن بالنقد الشديد، في كشف الخطأ المنهجي للفكر الغربي في اختزاله لحقيقة الكون والحياة والإنسان في الجانب المادي فقط.

اثنا عشر: اتسم منهجه المقارن بمراعاة النقاط الجوهرية على مستوى المنهج ، لاسيما في بيانه للمفهوم المشترك للحرية في بحثه لمسألة الحرية في الحضارتين الإسلامية والغربية.